البحث عن القيم الإنسانية الجميلة..

فى ديوان :

"قالت الأشجار" لنشأت المصرى

أ.عبده الزراع

"نشأت المصرى" أحد شعراء جيل السبعينات الأدبى، وقد تخصص فى الكتابة للأطفال منذ فترة طويلة، وفاز ديوانه "قالت الأشجار" بجائزة الدولة التشجيعية فى شعر الأطفال عام ١٩٩٨، وفاز بجائزة إتحاد الكتاب فى أدب الأطفال عن كتابه : "مدينة القطط" الصادر أيضًا عن هيئة الكتاب عام ٢٠٠٧م.

دار الكتب والوثائق القومية

واخترت ديوانه " قالت الأشجار" ليكون محلاً لهذه الدراسة، وأجمل ما فيه – الديوان – هى وحدة الموضوع إذ يتحدث عن الأشجار عبر قصائد الديوان الإحدى عشر المتمثلة فى : "قالت الشجرة الجميلة"، "قصة الحجر"، "الشباب الذى مضى"، "أنا والرسام"، "قالت الشجرة الذابلة : وحيدة"، "الزائر الغريب"، "أنا والثعابين"، "العصفور يغنى"، "أختى الصغيرة"، "أجمل الذكريات"، "قالت الشجرة الحمقاء : أنا وجارتى والصياد".

(١)

فى أولى قصائد الديوان : "قالت الشجرة الجميلة"، تتحدث الشجرة عن ثقتها بنفسها وقوتها فى مواجهة الأخطار المتمثلة فى قوة الريح، وعن تشابهها مع الإنسان فى الشكل، وعلاقاتها بالكون والأشياء من حولها :

(أبهى الأشجار أنا / واقفة فى وجه الريح / وبرغم

الجذع المجروح لا أشكو أو أتبدل)

ويقول فى موضع آخر من القصيدة :

(أبهى الأشجار أنا / أشبه فى الشكل الإنسان / أوراقى مثل

الشعر / وجذعى مثل الجسم / وجذرى قدمان)

أراد الشاعر من خلال القصيدة، أن ينظر إلى الحياة نظرة فلسفية من خلال الشجرة (الحكيمة) التى تعدد فوائدها، وارتباط هذه الفوائد بالإنسان ارتباطًا وثيقًا، فهى التى تمنحه الظل لتحميه من شمس الظهيرة، وتعطيه الثمر يتغذى عليه، وتعطيه أيضًا أثاث البيت، عندما يقطعها ويستخدم أخشابها فى صناعة الأثاث والقوارب.. إلخ.

وتعترف الشجرة أيضًا بمن أعطاها ورباها ورعاها حتى نبتت وكبرت وفرعت وصارت شجرة كبيرة كنوع من الوفاء، ومن ثم أراد الشاعر أن يعدد فوائد الشجرة، ليتعرف الأطفال عليها، ويزرع فى نفوسهم قيمًا إيجابية جميلة.. تقول القصيدة :

(فحمدت الله لأنى وفيت /.. وفيت بدينى ما قصرت /

أذكر من ربانى ورعانى حتى فرعت /.. أعطيه الظل /

وأعطيه الثمر، وأعطيه أثاث البيت /.. أعطيه القارب

يركبه إن شاء / يصطاد الأسماك : ومن عمق البحر

اللؤلؤ والمرجان / لا أنسى من يرعانى / أعطيه سريراً

للنوم وللأحلام)

لم يكتف الشاعر بهذا بل يبث من خلال القصيدة مجموعة من القيم الإنسانية الحميدة بشكل غير مباشر، وبصيغة بعيدة عن صيغ الأمر، ويؤكد على ضرورة نبذ الصفات الذميمة مثل : "الغرور والأنانية"، وأن كل شىء على وجه الأرض لم يخلق إلا لتسبيح الرحمن، مصداقًا لقول الله عز وجل فى كتابه الكريم : "وما خلقت الإنس والجن إلا ليعبدون"، وهنا يتناص الشاعر مع القرآن الكريم.

تقول القصيدة : **(لكن عزائى.. أنى قلت الصدق بلا لف أو دوران /**

أنى لست أنانية / أو مغرورة / مثلى.. كُل نبات الأرض المعمورة /

لكن حاولت التعبير عن الغير / وتجسيد الصورة / أتحدث عن نفسى.. أعترف

لكل بنى الإنسان : "أجمل ما نفعل فى أى زمان ومكان.. تسبيح الرحمن")

ويقول الشاعر فى موضع آخر على لسان الشجرة :

(وأسبحه بالصمت وبالحركة فى الأوراق / أسمع من حولى تسبيح الكون /

وتسبيح الريح / لست أنا وحدى من يستمتع بالتسبيح)

ويؤكد الشاعر على نفس المعنى فى قصيدة أخرى من الديوان، فيقول فى قصيدة : (قصة حجر) :

(الزائر الغريب، قال : / لو أننا نسمع ما تقوله الأشياء ندرك أن غاية الوجود /

عبادة المعبود / الله لا سواه / الله لا سواه / وهكذا أراك يا سيدة الأشجار عابدة

لله كثيرة الأفضال)

ولأن هذا الديوان مليئ بالقيم الإنسانية الراقية التى حرص الشاعر أن يثبتها فى ديوانه، وأبرز هذه القيم هى : الإعلاء من شأن الإنسان، الذى كرمه الله عز وجل، وجعله خليفته فى الأرض، وقد أوردها الشاعر متناثرة فى قصائد عدة داخل الديوان، موضحًا مدى العلاقة الطيبة التى تربط الإنسان بالشجر، وكأن الشجرة حبيبة تسعد بلقاء حبيبها الإنسان بعد غياب طال مشبهًا هذا بسعادة الإنسان بظل الشجرة فى ظهيرة يوم قائظ ليستظل بظلها، ويأكل من ثمارها الطازجة.. تقول قصيدة "الشباب الذى مضى" على لسان الشجرة :

(يا صاحبى.. واقفة أنا / ولم أعد وحيدة / فرحانة أنا لأننى ألقاك /

لكن.. إلى متى اللقاء؟!)

وفى موضع آخر من هذه القصيدة، تقول الشجرة :

(لحلتى الخضراء / جميلة الأوراق / بفضل الله ظلها استراحة المسافر /

ومصنع الغذاء / ومصنع الأكسجين للحياة / وثمرى يأكل منه كل عابر /

وبين أذرعى / الطير تبنى عشها.. تمارس الغناء)

وفى قصيدة : "وقالت الشجرة الذابلة : الزائر الغريب" يؤكد الشاعر على نفس المعنى، وهو العلاقة الطيبة بين الإنسان والشجر.. تقول القصيدة :

(اليوم فى الظهيرة / أتى إلى زائر غريب / ينظر لى كأننى أميرة فقيرة /

حبيبته كأنه منى قريب)

أما فى قصيدة : "العصفور يغنى "تتجلى هذه العلاقة أكثر، وهنا تتناص القصيدة مع القرآن الكريم، يقول المولى عز وجل فى كتابه الكريم : (إذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا* إلا إبليس أبى واستكبر وكان من الكافرين)، تقول القصيدة :

(تحياتى إليك يا سيدة الشجر / قلت : كفاه أنه من البشر /

فالله قال للملائكة : أن يسجدوا لآدم)

لم يغفل الشاعر فضل الكلمة، "ففى البدء كانت الكلمة"، وهناك شعراء كثيرون تحدثوا فى قصائدهم عن الكلمة، يقول الشاعر صلاح جاهين محرضًا على الكلام فى قصيدته العامية الجميلة :

(الكلمة إيد.. الكلمة رجل.. الكلمة باب / الكلمة نجمة كهربية فى الضباب /

الكلمة كوبرى صلب فوق بحر العباب / الجن يا أصحاب ما يقدر يهدمه /

اتكلموا/ اتكلموا / اتكلموا)

أما الشاعر محمد الشرنوبى شاهين "فيقول أيضًا عن الكلمة فى قصيدته العامية :

(الكلمة راجل شهم / أو راجل جبان / حتى ولو كانت كتابة / على الورق أو ع الحيطان)

أما نشأت المصرى فى ديوانه يقول عن الكلمة فى قصيدته : "وقالت الشجرة الجميلة" :

(فالفنان له ألف تحية / فليأخذ كل منا حقه / حتى لو كانت كلمات من إحساس /

فالكلمات الحلوة أغلى من قطع الألماس / الكلمة ميثاق / شرف، وعد، نور

طريق / الكلمة فى السلم وفى الحرب لها أثر الطلقة / نعرف من كلمات رسول

الله صلى الله عليه وسلم / أن الكلمة لو كانت طيبة صدقة)

هكذا يرى الشاعر قيمة الكلمة فهى لو كانت حلوة تشبه قطع الألماس الذى هو أغلى من الذهب، والكلمة أيضًا ميثاق شرف، وإذا قلتها قطعت على نفسك وعد لابد وأن تنفذه حتى لا توصف "بالمنافق" وهى النور الذى يضئ الطريق، وهى فى وقت السلم وفى وقت الحرب مثل الطلقة إذا خرجت من فوهة البندقية لا يمكن أن ترجع لها مرة أخرى بل تحسب على قاذفها إذا كانت خطأ أم صواب، مثلما تحسب الكلمة على قائلها إن كانت خيرًا فهى خير، وإن كانت شرًا فهى شر، وفى آخر هذا المقطع يتناص مرة أخرى مع حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم : "الكلمة الطيبة صدقة".

هذا الديوان مليئ بالمعانى العميقة التى تحتاج إلى غواص ماهر لكى يغوص وراء مدلولاتها حتى يخرج باللآلئ والجواهر التى تثرى حياتنا الإبداعية بالجديد والمفيد.

(٢)

جاءت لغة الديوان مناسبة للمرحلة العمرية التى يتوجه إليها الشاعر، وأنا أراها تتوجه لأطفال المرحلة العمرية من سن ١٢ : ١٤ سنة، وهى مرحلة يتميز أطفالها بأنهم يمتلكون قدرًا معقولاً من المفردات والمعانى التى تجعلهم قادرين على التواصل مع مفردات هذا الديوان وعالمه ولغته الراقية بسهولة.

وهى أيضًا متناسبة مع الأفكار والرؤى التى يناقشها الديوان، لأنها أفكار فى جوهرها تفلسف الأشياء، وتعمل على إيجاد علاقات تواصل بين "الشجرة" بطل الديوان ومحوره، وبين "الإنسان" المستفيد من الشجرة بكل ما تحمل من عناصر مادية ومعنوية، وتشابهها معه ومع جميع المخلوقات الحية وغيرها من طير، وزرع، وحيوان، وجماد.. إلخ، فى التسبيح لله مالك الملك.

أراد الشاعر ألا يقدم أشعارًا سهلة بدون إعمال العقل أو التخيل بل أطلق لخيالهم العنان.

(٣)

استخدم الشاعر فى ديوانه "التشبيه" و "الاستعارة" و "الكناية" حتى يعمق أفكاره ويجعلها أكثر نضجًا ففى قصيدة : "قالت الشجرة الجميلة" :

(أشبه فى الشكل الإنسان / أوراقى مثل الشعر، وجذعى مثل الجسم / وجذرى

قدمان / ثوبى ما أبدعه من صنع الرحمن / ثوبى أخضر فى لون الخير)

هنا شبه الشجرة بالإنسان فأوراقها مثل الشعر، وجذعها مثل الجسم، وجذرها مثل القدمين، وهو تشبيه موفق وقريب إلى نفس القارئ، والثوب الأخضر فى لون الخير، فالخضار معادل للنماء والرخاء، وهو كناية بالفعل عن "الخير"، والشجرة فى مجملها مصدر لهذا الخير فهى التى تعطينا : "الظل / الثمر/ الخشب".

كما جاءت الصور الشعرية بليغة وموظفة بدقة وتدعو للتفكير وربط العلاقات مثلما يقول :
(زينتم بى كل الطرقات / فأنا رئة أخرى للناس والعربات / أحميكم من نار الحر وأتربة الشر)

وفى قصيدة أخرى يقول :

(وتلمع الرمال فى ضياء الشمس كالذهب)

شبه الرمال حينما تسقط عليها أشعة الشمس بالذهب فى لمعانه، وفى قصيدة أخرى يقول :
(الليل جاء / والقمر الخجول فى الخفاء)

هذه الصورة الجميلة والمعبرة شبه فيها القمر بإنسان خجول يتخفى حتى لا يراه أحد، ولكنه عندما يظهر يراه الجميع.

الديوان مليئ بالصور الجمالية المميزة، ولكن المجال لا يتسع لرصد كل هذه الصور، والديوان فى مجمله متميز، يثبت بأن وراءه شاعر متمرس وصاحب خبرة طويلة فى الكتابة للأطفال، والديوان إضافة هامة لشعر الأطفال.